منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الأيام للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (4971) السنة الثامنة عشرة الاربعاء (23) حزيران 2021

غياتري سبيفاك

ديريدا والهامش وأعمالها: حوار مع غياترى سبيفاك

ترجمة: محمود أحمد

قام ستيف بولسون بإجراء هذا الحوار لمجلة لوس أنجلوس مع أستاذ الدراسات النسوية غياترى سبيفاك ، وتحدثت فيه عن موضوعات عديدة، وهذا نص الحوار:

■ ستيف بولسون: لقد وصلت طباعة ترجمتك لكتاب لدريدا عن "الجراماتولوجى" للطبعة الأربعين، فلماذا نحتاج إلى ترجمة منقحة لهذا الكتاب؟

– غاياتري سبيفاك : عندما قمت بترجمة الكتاب، لم أكن أعرف دريدا أو أي شيء عن تفكيره. لذلك بذلت قصارى جهدي لتقديم الكتاب وترجمته، واشتهرت مقدمتى تلك، ولذلك أشعر تجاهها بالامتنان. ولكن الآن، وبعد فترة من الاشتغال على أعمال دريدا، يمكننى أن أقول للقراء الكثير عن هذا المفكر الاستثنائي، لذلك أضفت خاتمة للكتاب. هذا تكريم منى لحياة معاشة وليس مواجهة لنص جديد عظيم .

■ وهل تغير فهمك للكتاب على مدى العقود الأربعة الماضية منذ أول ترجمة له؟

هذا ما حدث بالفعل. فعندما بدأت الترجمة، لم أتبين انتقاد الكتاب لفكرة "المركزية الأوروبية" لأنها لم تكن شائعة كل الشيوع في عام ١٩٦٧. كان دريدا جزائريا يهوديا، ولد قبل الحرب العالمية الثانية، وكان في الواقع يواجه الفلسفة الغربية من داخلها. هو رجل ذكى، كان يبحث في مركزية أوروبا. ولا أظن أنني قد استوعبت هذا الجانب من فكره كما هو حالى الآن. أفهم أيضا الخيط الذي يلملم أطرافه من جهة كيف نقرأ بل ونعيش كما ينبغى، وهو ما لم يكن واضحا بالنسبة لي. وإننى أعرف الآن المزيد عن هيجل أكثر مما كنت أعرف وقتها لذلك استطعت أن أربط بينه وبين ديريدا .

لذلك رأيت فى هذا الكتاب نقدا للفلسفة الغربية؟

هذا ما يعنيه اصطلاح "تفكيك"، أليس كذلك؟ انها ليست مجرد تدمير بل وبناء. إنه حميمية نقدية، وليس حيادية نقدية. ومن ثم فأنت تتحدث في الواقع من الداخل. هذا ما تعنيه التفكيكية. مرة قال أستاذي بول دي مان لناقد آخر رفيع المقام، وهو فريدريك جيمسون، "فريد، يمكنك أن تقوم فقط بتفكيك ما تحب". لأنك تقوم بالتفكيك من الداخل، بألفة حقيقية. إنه ذلك النقد الذى تقلب فيه ما تنقده رأسا على عقب.

ما الذى حاول دريدا تفكيكه؟ كيف حاول تفسير الفلسفة الغربية تفسيرا مغايرا؟

إن موضوع اهتمامى هو استمرار هيمنتها على مدى قرون دون تغيير. فجماعات بكاملها همشت لأن خطابا سائدا قد استقر. وقال أيضا شيئا قويا للغاية حول الشفوية الأفريقية: فالأفارقة يمكنهم تذكر الماضي حتى سبعة أجيال، ولقد فقدنا تلك القدرة. فـ"الكتابة" تحل محل مواد نفسية تسمى "الذاكرة". يربط دريدا هذا الفهم بفرويد. وهكذا كان يقول انظر للواقع بعناية. فهو مشفر بحيث أن آخرين، حتى ولو كانوا غير موجودين، قادرون على فهم ما نقوله. لقد بحث كيف قمعت التقاليد الفلسفية هذا.

بدأتى العمل على ترجمة كتاب الجراماتولوجى أواخر الستينات. ولم تكونى باحثة معروفة وقتها، ولم يكن دريدا معروفا إلى حد كبير في الولايات المتحدة. والكتاب شديد التجريد، وصعب للغاية، ولا يزال عصيا على القراءة. فلماذا شرعت فى العمل على هذا المشروع الشاق؟

حسنا، لم أكن أعرف من هو دريدا مطلقا. كان عمري ٢٥ وأعمل أستاذا مساعدا في جامعة أيوا عام ١٩٦٧، وأحاول أن أحافظ على مغايرتى الفكرية. لذلك كنت أطلب شراء الكتب من الكتالوج التي تبدو غير عادية، وعلى هذا النهج قررت طلب هذا الكتاب.

■ لذلك قرأتى الكتاب بلغته الفرنسية ثم فكرت فى ترجمته إلى الإنجليزية؟

لا لا. تمكنت من قرائته ورأيت فيه كتابا غير عادي. كان هذا قبل الانترنت، لذلك لم يخبرنى أحد شيئا عن دريدا. ولم يلتق أستاذي دريدا عندما غادرت كورنيل، لذلك لم أعرف حقا من هو. فدارت بخلدى هذه العبارة "حسنا، إننى أجنبية شابة وذكية، ولدى هنا مؤلف مجهول. ولن يتعاقد معى أحد لنشر كتاب حوله، لذلك قلت لماذا لا أحاول أن أترجم له؟" وسمعت في حفلة كوكتيل أن دار نشر جامعة ماساتشوستس تنشر الترجمات، لذلك كتبت للعاملين فيها خطابا أستعلم فيه الأمر أواخر ١٩٦٧ أو أوائل ١٩٦٨. أخبرونى فيما بعد أن رسالتي شجاعة للغاية وظنوا أنهم يجب أن يمنحوننى فرصة. [تضحك] انه لأمر سخيف حقا، ولكن هذا ما كان.

أصول متواضعة للغاية بالنسبة لكتاب أصبح كلاسيكيا.

لعلمك لقد أصابتنى الدهشة. ضع نفسك مكانى. لا الانجليزية ولا الفرنسية هى لغتى الأولى ولقد غادرت الهند فقط عام ١٩٦١. واتسمت مقدمتي بالتواضع لأنني لم أدرس الفلسفة.

■ وإنها لمقدمة طويلة للغاية. مقدمتك للكتاب تكاد أن تعتبر كتابا في حد ذاته.

هذا ما كتبته في عقدي لأنني أردت أن أكتب كتابا عنه. لذلك كتبت في عقدي، أننى لن أقوم بالترجمة إذا عجزت عن كتابة مقدمة مطولة. كنت في منتصف العشرينات عندما كتبت تلك المقدمة. والآن إنها تشعرنى بالخجل والحرج.

■ ولدت في كلكتا قبل بضع سنوات من تقسيم الهند. فهل نشأت في عائلة من المثقفين؟

نعم فعلا. تزوجت والدتي في عمر الرابعة عشرة، وولد أخي عندما بلغت الخامسة عشرة. وولد والدي في قرية على سفوح جبال الهيمالايا في بنغلاديش

■ هل التقسيم الذى قسم البلاد إلى دولتى الهند وباكستان له تأثير كبير على عائلتك؟

كما تعلم، ظننا أيضا استقلالا. إن الاستقلال هو رعب التقسيم. ولذلك يعتبر التقسيم ثمنا اضطررنا لدفعه. حسنا، انه ترك أثره على أقاربي أكثر من أفراد أسرتي لأن والدي هرب فعلا من ولاية بنغالية الشرقية، والتي هي الآن بنجلادش. وعندما اجتاز امتحان الثانوية العامة بكفاءة، قال والده له: "آه، يمكنك إذن أن تعمل مديرا لمكتب البريد في بلدة المقاطعة"، وطموح والدي أكبر بكثير من ذلك، ففر إلى كلكتا عام ١٩١٧. ولقد ولدت في كلكتا. ولكن طريقة تأثير التقسيم فى حياتنا تمثلت فى أحداث الشغب الرهيبة التي نتجت عن عمليات القتل فى كلكتا عام ١٩٤٦ وعن المجاعة التى حدثت عام ١٩٤٢. تلك الأشياء أثرت حقا فينا. وعندما بدأ اللاجئون في القدوم، كانت والدتي، التي عملت وقتها فى مهنة أخصائية اجتماعية، تترك منزلنا في الساعة الخامسة صباحا وتذهب إلى محطة القطار للمساعدة في إعادة تأهيل اللاجئين. هذه بعض الأحداث التى ميزت طفولتي.

■ لابد أنك رأيت كيف أصبح المسلمون ينعتون بالغرباء.

بالطبع هذا أمر يتزايد الآن في الهند. وفي عام ١٩٤٧ كنت صغيرة جدا – بلغت الخامسة من عمري – لأفهم الفرق بين الهندوس والمسلمين حيث كنت في منزل مسكونى. ولكن ذلك التمييز يحيط بنا. فأعمال الشغب بين الهندوس والمسلمين شاخصة أمامنا، واعتبرت وقتها أمرا غير عادي جدا لأنه حتى ذلك الحين كان هناك نوع من التعايش قديم الأزل. ولكن عندما بدأ الصراع فى حينا، ستسمع بأذنيك الله أكبر ثم هارا هارا ماهديو، ثم تعرف أن شخصا ما قد قتل. وسوف ترى إراقة الدماء. ولكننى كنت صغيرة جدا ولم أعرف في المنزل تمييزا على أساس الطائفة أو الدين أو أي شيء. وكان طلاب والدي من المسلمين داعمين لذلك، بل ويأتون له يرتدون زي الهندوس ويقولون له لا ترد على المكالمات الهاتفية في المساء. والدي نفسه رجل مسالم. وعندما يفتح منزله الصغير، سيقف مع الرجال المسلمين فى مدخل البيت والنساء والأطفال داخل المنزل، ويقول: "طالما أنا على

قيد الحياة، لن يمسسكم أحد." نحن لا نعرف التمييز كلية. وكأطفال كنا نظن أننا شعب واحد.

■ هل حصلت على شهادتك الجامعية من الهند. وكيف كففت عن الذهاب للولايات المتحدة؟

حصلت على شهادتي من جامعة كلكتا، وشرعت في دراسة الماجستير. بلغت ١٨ عاما فقط ويتيمة الأب – توفي والدى عندما بلغت الثالثة عشرة – وأدركت أنني لن أحصل على تذكرة الدرجة الأولى لأنني عملت رئيس تحرير مجلة وكنت قد وجهت انتقادا شديدا للجامعة. لذلك اقترضت المال وعدت بتذكرة ذهاب فقط ومعى في جيبي ١٨ دولارا. ولم أرغب في الذهاب إلى بريطانيا لأنني قد اضطرت إلى الحصول على درجة البكالوريا وذلك في فترة ما بعد الاستقلال مباشرة. وهذا ما يبرر ذهابي إلى الولايات المتحدة. ذهبت إلى كورنيل لأنني عرفت فقط أسماء جامعات هارفارد وييل، وكورنيل، واعتقدت أن هارفارد وييل جيدة جدا بالنسبة لي.

■ اليوم أنت مشهورة كواحدة من مؤسسي دراسات ما بعد الاستعمار. هل هناك علاقة بين هذا العمل وعملك سابقا على التفكيك وترجمة دريدا؟

كما تعلمون، لم أكن مطلقا جزءا من زمرة النظرية الفرنسية. ولذلك كدخيلة اعتبرت مروجة لموضة التفكيك أقل قيمة. ولم أكن أملك صلات بآخرين. ولكن عملى فى اتجاه ما بعد الاستعمار قد كان جزءا من لحظة كتابة السيرة الذاتية التي يقوم بها معظم المهاجرين في المدن الكبرى من أبناء الطبقة المتوسطة – مثلما ظن إدوارد سعيد "فرض على الطابع الشرقي"، وفي عام ١٩٨١ عندما طلبت مني مجلة "دراسات ييل الفرنسية" للكتابة عن الحركة النسوية الفرنسية وطلبت منى مجلة كريتيكال إنكوارى (الدرس النقدى) للكتابة عن التفكيكية، سألت نفسي كيف أصبحت مرجعية فى أى مادة فرنسية؟ لذلك فكرت بطريقة مختلفة. وبالتالي، انخرطت فى هذا النوع من التفكيكية، والذي يجعلنا نبحث عما استبعد عندما نقوم بوضع الأنساق. هذا النوع من التفكيكية يقدم الوسيلة المثلى للعمل عصى على النقد ذاتيا. وهذا النوع من التفكيكية هو الذي يجعلك لا تنقد ما تقوم بتفكيكه. أنت تدخل إليه فقط. هل تتذكر الحميمة النقدية؟ حيث تحدد لحظة يعلمك فيها النص كيف تقوم بقلبه رأسا على عقب واستخدامه. ولذلك فإن هذا قد أصبح جزءا من طريقتي في العمل. بوضوح شديد، هناك صلة ما. لكن شيئا واحدا لم أقم به وهو تطبيق النظرية. فالتنظير عندى هو الممارسة. إذ يصبح مستدخلا فيك. حيث يتغير تفكيرك وهو ما يتبدى في عملك. وهذا ما حدث لى.

■لقد أصبح مقالك المنشور عام ١٩٨٥ والمعنون بـ"هل يمكن للتابع أن يتكلم؟"، نصا تأسيسيا في دراسات ما بعد الاستعمار. هل بمقدرتك أن توضحى لنا معنى كلمة "تابع"؟

إن كلمة تابع تعنى من يتلقى الأوامر ولا يصدرها. والكلمة من إبداع أنطونيو جرامشي، الذي جعل الكلمة جارية على الألسن. فقد بحث عن الناس الذين لا يعتبرون في الواقع أبناء الطبقة العاملة أو ضحايا الرأسمالية. بحث الرجل عن الناس الذين هم خارج هذا المنطق، فهو نفسه من أهل سردينيا، التى تقع خارج أعالى إيطاليا من جهة الشمال. ولكن كلمة "تابع" تعني أيضا من لا يعتبرون مواطنين. إننى أتحدث الآن عن الهند اليوم، حيث يوجد بها قطاع عريض من الناخبين من غير الأميين الذين لا يملكون أرضا في الريف. قد يصوتون لكنهم لا يعتبرون مواطنين لذلك هم تابعون. اكتشفت أن عمة والدتي شنقت نفسها عام ١٩٢٦ عندما بلغت الساعة عشرة من عمرها، لقد كانت عضوا فى مجموعة مناهضة للإمبريالية. وعجزت عن ممارسة القتل، ولذلك قتلت نفسها. لكنها انتظرت أربعة أيام حتى حاضت ومن ثم لن يظن الناس بأنها قتلت نفسها بسبب حمل غير شرعي. لقد أرادت من ذلك القول بأن المرأة لا تنتمي إلى الرجال. هل يمكنك أن تتخيل مدى صعوبة الانتظار؟ وبذلك تحدثت بجسدها.

■ لذلك قتلت نفسها تعبيرا عن فعل سياسي؟

نعم، كفعل سياسي، لأن هذا هو ما تفعله إذا كنت لا تستطيع أن تنجز عملية اغتيال. ومن ثم تقتل نفسك. أعني، أنا لا أفهم تلك الأمور، ولكننا قرأنا دوستويفسكي وقرأنا عن النضال ضد الإمبريالية في الهند لنعرف أن ما قامت به عمة والدتى قد حدث. وكانت في سن المراهقة، لذلك انتظرت لأن السبب الوحيد لتبرير قيام شابة فى سن المراهقة ومن الطبقة المتوسطة، بشنق نفسها إلا إذا كانت حاملا بطريقة غير شرعية. لقد تركت رسالة لجدتي. وسمعت قصتها من أمي، لكنني لم أتبين أن المرأة التى تناولها مقالى هى عمتي الكبرى. ولأنها من التابعين، تحدثت بجسدها، لكنها يصعب سماعها. وحين تقول بأن التابع عاجز عن الكلام فهو مثل قولك لا يوجد عدالة.

■ لذلك حتى لو تكلمت، فلن يسمع أحد لها.

هذا ما ينطبق في الواقع على الجماعات التابعة. لقد تركت فصلى وجدول أعمالي عندما بدأت فى محاولة معرفة معنى "التابع". تناقشت مع جماعات تابعة في الهند، بالقرب من مدارسى. إنهم الذين حرمهم أجدادى على مدى ألفية من الحق في العمل الفكري – الطائفة الهندوسية. وهكذا يوميا أرى كيف يتكلمون، فهم لا يسمح لهم بالتحدث مباشرة على نحو مفهوم. بعض الناس خيرون تجاههم ومحسنون لهم غاية الاحسان، ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئا. لقد كنت أدرس لمدة ثلاثين عاما، ولكن تدريسي بدأ عندما أخذت أسأل نفسي، هل ينبغى أن أعتبر خبيرة في النظرية الفرنسية؟

■ إن الفاتن في عملك هو ارتداؤك لقبعتين. فأنت أستاذ محتفى به في جامعة كولومبيا، وأنت أيضا عدت إلى الهند لعقود للعمل مع الطلاب الأميين في المدارس الريفية. ماذا تفعلين في تلك المدارس؟

إننى أدرب المعلمين بتعليم الأطفال. وأريهم، بقدر ما أستطيع، كيفية تدريس المناهج الحكومية. كذلك أحاول إيجاد طريقة للتدريس أحول بها بديهيات الديمقراطية لعادات عقلية يمارسها الأطفال الصغار لأنه لا حاجة للتحدث إليهم. هذه ليست الطريقة التي يجب أن يتعلم بها الأطفال؛ انها مثل الكتابة على الأسمنت الرطب. فهذا أمر غاية فى الصعوبة. انه تحد كبير لأن هذه هي العقول التي دمرناها. هؤلاء الناس ليس لديهم شيء. ولذلك فإنني أحاول تدريب المعلمين من خلال تعليم الأطفال. أذهب هناك ثمانية أو تسعة مرات في السنة ولكننى أتحدث معهم مرتين في الشهر بالهاتف. بالأمس فقط تحدث معى بعض المعلمين عن الصعوبات التي تواجههم مع المشرفين عليهم. هم جميعا من المجتمع. وكنت أقول لهم "كونوا صبورين. فقط القوا نظرة على حجم المشاكل التى واجهتنى على مدى السنوات كى أحاول الكلام على هذا النحو الذى عاينتموه". ولذلك هو تحدي شديد الأهمية.

■ إن التعليم عادة ما يعني تعليم أساسيات القراءة والكتابة، ولكنك تتحدثين عن شيء أعمق من ذلك بكثير. تتحدثين عن الديمقراطية وتعليم الأطفال الصغار مناقشة السلطة.

إن أساتذتي أنفسهم أيضا من ذات المجتمع. من الذين لا يملكون أرضا. أعني أن معرفة القراءة والكتابة والحساب ليست في حد ذاتها بالأمر الكبير، وخصوصا عندما يعتبر التعليم المتاح تعليما فى غاية السوء. بالطبع أثمن عاليا المعرفة بالقراءة والكتابة والحساب. ومع ذلك، لقد عرفت اثنين أو ثلاثة من الأميين من أبناء هذا المجتمع على مدى السنوات الثلاثين الماضية وتحدثت معهم كأنداد لى فكريا لأنهم لم يدمرهم التعليم الردئ.

■ هذا يبدو وكأنك تقولين أن التعليم الحقيقي هو بالتعريف ممارسة أخلاقية؟

الأخلاق بقدر ما لا يمكن تدريسها لأنها ليست مجرد التصرف على النحو القويم. تذكر أن الديمقراطية نظام سياسي، وليست بالضرورة نظاما أخلاقيا. والنهج الديمقراطي الحقيقي للتعامل مع من هم فى قاع المجتمع هو أن نتذكر أننا لا نرسل فقط طفلنا إلى المدرسة لمحو أميته. وهذا يعلمني الكثير عما أقوم به مع من هم فى قمة المجتمع. ففي كولومبيا لا أعلم أهل جنوب آسيا. ولست هناك لجلب أخبار دقيقة من مسقط رأسي. إنى أوروبية، ولذا أعلم موادا باللغة الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية لطلاب الدكتوراة في مدينة نيويورك. ومن ثم لدي أميون لا يملكون أرضا بأكبر ديمقراطية في العالم فيما يفترض. انها تجربة جيدة لمعرفة كيف يمكن أن تكون ديمقراطيا في قمة المجتمع وقاعه.

■ ولكن عندما أنظر إلى حياتك المهنية، يبدو أن هناك مفارقة عميقة. إنك تقومين بالتدريس لطلبة الدكتوراة في جامعة كولومبيا، حيث تعتبرين الكاهن الأعلى للنظرية الأدبية، وتقومين بتدريس الكتب شديدة التجريد، مثل كتاب "الجراماتولوجى" لدريدا. لكنك أيضا ناشطة منخرطة فى العمل بالمدارس مع طلاب أميين، لا صلة لهم بعالم النظرية ذات المستوى الرفيع. فهل هناك حقا علاقة بين العالمين؟

نعم، إذا كنت تتحدث عن تلك الحقبة في فرنسا عندما كان الناس يهتمون بالنظرية أو يهتمون بجرامشي في محبسه. إننى أيضا متأثرة غاية التأثر بروزا لوكسمبورج، التي أمنت بالدولة. لكنني لا أطبق النظرية عندما أقوم بالتدريس في هذه المدارس أو التدريس في جامعة كولومبيا. انها مثل أن ألقى في الماء وخلال ذلك أتعلم السباحة. وأظل بكل مرة أشعر بالرعب قبل الدخول إلى الفصل الدراسى. ولكن المراد بعد ذلك، عندما أفكر في التجربة، أستطيع أن أميز النظرية بما تعلمته من التدريس وأي جزء من النظرية يعيش لأن فعل التنظير هو أيضا ممارسة. وهو ما أعلمه لطلابى من أهل القمة.

عن موقع حكمة

ولدت اثناء الحرب العالمية الثانية ، تنتمي الى عائلة من الطبقة المتوسطة ، جرب الجد ان يعمل بالتجارة فخسر ما جمعه من اموال طوال حياته ، ولد الأب في قرية على سفح جبال الهملايا ، في مجتمع لا يرتدون فيه الملابس قبل سن السادسة ، عندما اجتاز امتحان الثانوية ، قال له والده: " يمكنك أن تعمل مديرا لمكتب البريد " ، كان هذا قصى طموح الجد ، لكن تطلعات الأب كانت اكبر بكثير فقرر أن يهرب عام ١٩١٧ ليعيش في مدينة كلكتا ، يكمل دراسته في كلية الطب بعدها يعمل طبيبا في الارياف ، اصر على ان تتعلم ابنته الانكليزية وهي لم تتجاوز الخامسة من عمرها . عاشت والدتها التي تزوجت في سن الرابعة عشر حياتها وهي تهتم بقراءة تعاليم الراهب الهندوسي " سوامي شيفاناندا " وكانت توصي ابنتها أن تسيطر على احتياجاتها لأن هذا هو المكسب الحقيقي في الحياة ، تقول انها عاشت وسط عائلة مثقفة أب مؤيد للنسوية وأم نسوية :" لقد تربيت تربية غير عادية. وإنني مدينة بكل شئ لأبوى " ، كانت في الخامسة من عمرها حين اندلعت الحرب الهندية الباكستانية ولا تزال اعمال الشغب التي حدثت بين الهندوس والمسلمين شاخصة امامها ، تتذكر طلاب والدها من المسلمين ، الذين اصروا عندما تعرضت عائلتها للتهديد أن يرتدوا ملابس الهندوس للدفاع عن استاذهم وهم يقولون له :" طالما نحن على قيد الحياة لن يمسكم احد" ، بعد هذا الصراع بدأت الطفلة الصغيرة تسمع البعض يصرخ " الله اكبر " واصوات غاضبة تردد " هارا هارا ماهديو " ، عند ذاك كانت ترى والداها يتهامسان ، وستعرف فيما بعد ان نتيجة هذا الصراخ اراقة دم انسان بريء .

غاياتري سبيفاك .. عندما يريد التابع أن يتكلم

علي حسين

غاياتـري شاكرافورتـي سبيفـاك التـي اختارتها مجلة الادب الفرنسـي الجديـد قبـل اشهـر ضمـن الفلاسفـة العشرة الاكثر تاثيرا في العالم حاليا ، ولدت في الرابع والعشريـن مـن شبـاط عـام ١٩٤٢ في ولايـة البنغـال الهنديـة ، توفي والدهـا عندما بلغت الثالثـة عشرة من عمرهـا ، فتولـت تربيتهـا والدتها التـي تطوعت للعمل أخصائيـة اجتماعيـة لرعايـة المهجرين مـن مناطقهم ، تتذكـر كيـف أن امهـا كانت تـترك المنـزل في الخامسة صباحـا لتذهـب إلى محطة القطار للمساعـدة في إعادة تأهيل اللاجئين. وظل منظر الام وهي تواسي الهاربين مـن العنف وتبحـث لهم عن سكـن ، ابـرز المشاهد التى ميـزت طفولتهـا .. أدمنـت منـذ صغرهـا علـى القراءة عشقت في مراهقتهـا دوستويفسكي الذي كانت تسميه نصير الضعفـاء ، وفي شبابهـا ستجد نفسهـا اسيرة لكتابـات الشيوعـي الايطـالي " أنطونيـو غرامشـي" حيـث وجـدت عنـده مصطلـح الهيمنـة.. كانـت حيـاة غرامشي داخـل السجن وهو يعاني مـن سوء صحته ، قد جعلتـه يقرأ التاريخ قراءة جديدة دفعته للايمان بأن الهيمنة كانت وراء قـوة الدولة وتفوق الطبقة الحاكمة في المجتمـع الرأسمـالي الحديث، ووراء تـردد أو عدم قـدرة الجماهـير في المـدن والأريـاف علـى الانتفاض ضدهـم ، وقـد ساعدتها كتابـات غرامشي فيمـا بعد ان تسلـط الضوء علـى مفهوم الهيمنة ، فلـم يكن غرامشي ينظر إلى الهيمنة على انها امر مفروض من الخارج من خلال القوة المادية أو البنى الاقتصادية و السياسية، بل ان هـذه الهيمنـة تم تبنيها من قبل الفلاحـين كجزء من ثقافتهم ووعيهم.

وجـدت في الكتابـة وسيلـة للهروب من الواقـع ، كانت تخجـل مـن مواجهـة صديقاتها بمـا تكتبه . بـدأت في كتابة الروايـة و استلهمت احداث الاقتتال بين المسلمين والهندوس ، مـن خلال عذابـات امراة تجـد نفسها في أجواء مجتمع متطرف، لكن الام ستطلب منها ان تتمهل في الكتابـة وتقـرأ اكـثر . ارادت من كتابـة الرواية ان تتمـرن على طـرح افكارهـا بوضـوح .. كانـت صديقة والدتهـا بـين مئـات ضحايـا العنـف ، وظلـت تتذكرها لسنوات . تقـول انها ارادت استرجـاع الماضي المؤلم . بعـد عقود ستكتب :" يحتاج الامر الى جهد كبير لرؤية الحقائـق ، ومحاربة هـذا الواقع تتطلـب محاربة المرء لذاته «

في الثامنـة عشرة من عمرها حصلت على البكلوريوس مـن جامعة كلكتا، كانت تأمل ان تحصل على الامتياز إلا ان عملهـا رئيـس تحرير لمجلـة الجامعـة ، والنقد الذي كانـت توجهه للاساتذة لم يمنحها هذا الامتياز .. قررت ان تكمـل دراستهـا في امريـكا ، لم تكـن تملـك الاموال اللازمـة ، لكـن الام ستقترض مبلـغ تذكـرة الطائرة ، لتجـد غاياتري سبيفـاك نفسها تقدم طلـب للدراسة في جامعـة كورنيـل ، للتخصص في دراسـة الادب المقارن ، وفي الجامعـة تتعـرف علـى استاذها " بـول دي مان " البلجيكـي الأصـل ، وأستاذ كرسي الادب المقارن (١٩١٩-١٩٨٣) ، كان دي مـان قـد تعرف على فيلسوف التفكيكية " جـاك دريدا " من خلال عدة زيارات قام بها دريـدا الى امريكا ، وقـد استطاع بول دي مان وعدد من طلبتـه وعلى رأسهم غاياتري سبيفاك أن ينفخوا الروح في المنهج التفكيكي ، وأن يجروا تغييرات مهمة ، حيث نشـأت بسبـب ذلك منهجيـة تفكيكية امريكيـة مغايرة . وقـد اهدت سبيفاك كتابها " نقد مـا بعد الاستعماري " الى بـول دي مان الـذي كان قد توفي قبل صدور الكتاب بستـة عشر عاما ، وكتبت في مقدمة الكتاب ان استاذها الراحـل علم طلبتـه كيف يصبحون قـراء جيدين . كان دي مـان معروفا بانه مستشار ممتاز لطلبته ، يساعدهم في الوصول الى اماكن جيدة . عام ١٩٧٤ تقدم سبيفاك رسالتها للدكتوراه بعنوان " حيـاة وشعر و.ب ييتس " تحت اشراف بول دي مان . كانت حياة " ييتس " بالنسبـة لسبيفاك تشكمـل نوعا من الاثـارة ، فالشاعر الـذي حصـل على نوبل عـام ١٩٢٣ ، جمـع التناقضات في شخصـه ومعهـا الشعر المدهش. كان شديد الخجل والرغبـة في آن واحـد . منـح إيرلنـدا هويـة ثقافيـة ، شعـره مهـد للانتفاضـة الإيرلنديـة عـام ١٩١٦. اعتبر المواطن الإيرلندي أذكى مـن الانكليزي ودعا شعبه الى إحياء لغته الخاصة ، كان أحد صانعي إريلندا الحديثة وعاش أميناً لتناقضاته.

بعـد التخـرج ، تحصـل سبيفـاك علـى وظيفـة مدرسة للغـة الإنكليزية في احـدى المدارس الثانويـة .. بعدها ستصبـح أستاذة مساعدة في قسـم اللغة الإنكليزية في جامعة آيوا.

في صبـاح يـوم خريفـي مـن عـام ١٩٦٧ تتغـير حياة سبيفاك إلى الأبـد حيث عثرت على كتاب لمؤلف فرنسي غير معروف بالنسبة لها ، كان الكتاب بعنوان " في علم الكتابـة " تمعنت كثيرا في اسـم المؤلف " جاك دريدا " الـذي لم تسمـع به من قبـل ، اخذت الكتـاب الى البيت ، وبعـد ساعات من القراءة ستجـد نفسها قد وقعت تحت سحر صاحب " الكتابة والاختلاف " ، ما ان انتهت من الكتـاب حتى قررت ان تترجمـه الى الانكليزية ، لم يكن دريدا آنذاك معروفا في امريكا ، وعندما سألت استاذها دي مان اخبرها بكلمـات مقتضبة عن دريدا و التفكيكيه ، كان دي مـان قـد التقى دريدا للمـرة الاولى في جامعة هوبكنز في احدى المؤتمرات في عام ١٩٦٦ ، حيث ظهر دريـدا آنذاك في المشهد الفكري الأمريكي في مؤتمر عن البنيويـة. وقد صدم دريـدا جمهـور الحاضرين عندما عرض عليهـم "التفكيـك" باعتباره الفلسفـة الجديدة التـي ستنتصر في النهاية على حـد قوله ، وقد فتح ذلك المؤتمـر البـاب علـى مصراعيه امـام الاهتمـام المتزايد ببعض الفلاسفـة و المنظرين الفرنسيـين امثال ميشيل فوكـو وجاك دريـدا ورولان بـارت . وجـد دي مان انه يشترك مـع دريدا في اهتمامهمـا بالفيلسوف جان بول سارتـر ، وقـررا ان يشتغـلا على نصـ لروسو لم يحظ بشهرة كبيرة وهو" مقال في اللغة « .

كانـت غاياتري سبيفاك في الخامسـة و العشرين عندما عـثرت على دريـدا ، رأت في كتابه " في علـم الكتابة " نمطـا جديـدا من التفكير تقـول أنها بحثت عـن كتابات في الانكليزيـة عـن دريـدا فوجدتهـا شحيحـة ، قـررت ان تخوض تحـدي من نوع آخـر ، تفرغت عاما كاملا

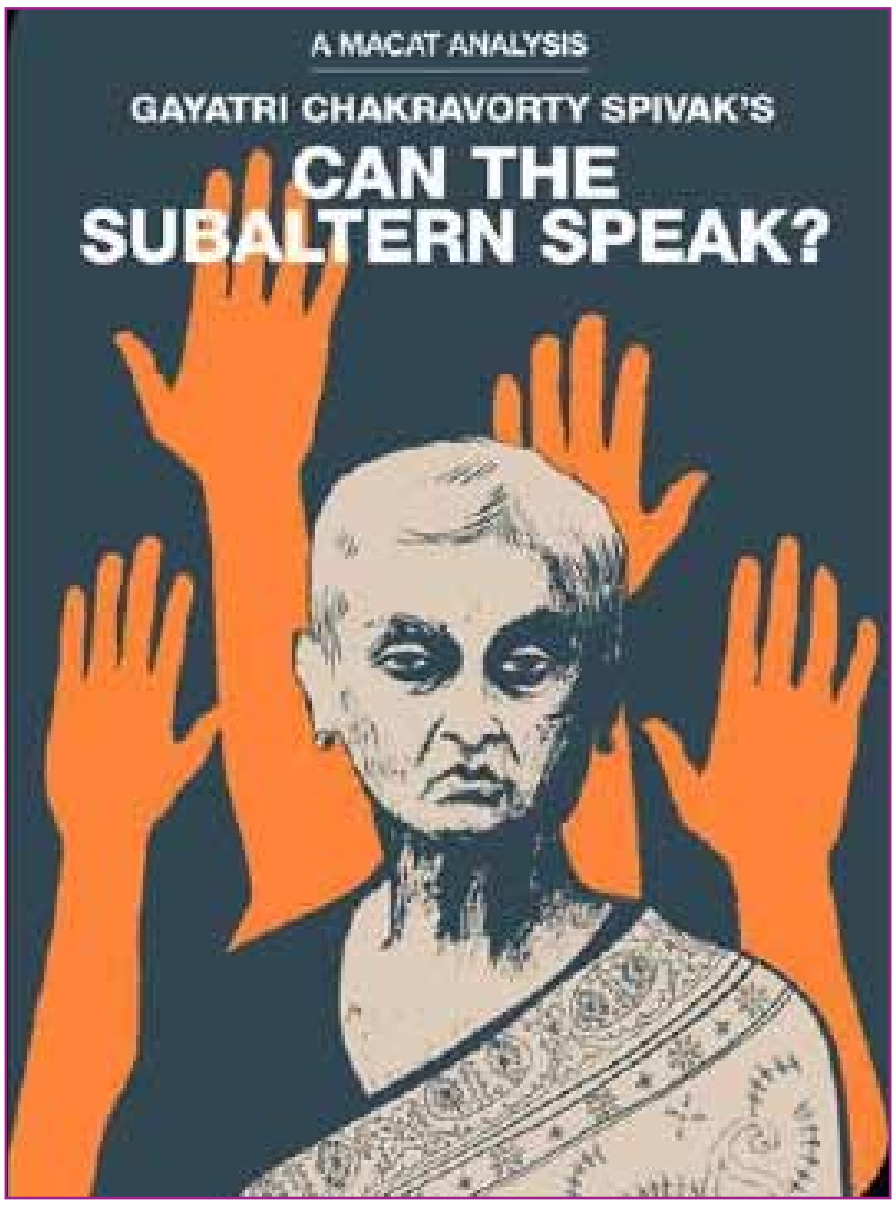

لترجمة الكتاب لتنتهي منه عام ١٩٦٩ ، قدمت للكتاب بدراسة مطولة لا تزال من اهم الدراسات عن جاك دريدا ..بعد ثلاثة سنوات على صدور الكتاب وجدت نفسها امام رجل يشبه نجوم السينما بشعره الابيض الكثيف ، ووجهه الاسمر ، وجاكيتته السوداء وقميصه الابيض المفتوح .. وما ان قال لها انا جاك دريدا حتى شعرت بالدوار ولم تكن تتوقع ان تراه في يوم من الايام ، بعدها سوف ترتبط مع دريدا بصداقة متينة حتى رحيله عام ٢٠٠٤ ، كان فيلسوف التفكيك معجبا بالمقدمة التي كتبتها هذه الفتاة الاسيوية كما كان يسميها ، وكيف انها استطاعت ان توصل افكاره باسلوبها الخاص رغم انها لم تدرس الفلسفة ، وتتذكر سبيفاك انها كانت تخرج مع دريدا لتناول الطعام والتجول بالشوارع هو : " ببشرته الداكنة حتى كانت الناس تتوهم انه هندي " ، وهي بالزي الهندي التقليدي " الساري " .. كان دريدا يقول للذين يلتقي به وهو يضحك : انا مواطن هندي .. ويشير اليها قائلا : وهذه الفتاة مغرمة بي وتفهم كتبي اكثر مني .. فيما سيبفاك ترد : ان ما كتبته عن دريدا هو تكريم منها لحياة معاشة ، وليس تفسير لنص فلسفي عظيم ..وجدت في كتاب دريدا نقدا لفكرة " المركزية الاوربية " ، وكان دريدا يعمل على مواجهة الفلسفة الغربية من داخلها .تكتب سيبفاك : "هكذا فهمت (التفكيكية) ، انها ليست مجرد تدمير بل وبناء، إنها حميمية نقدية، وليس حيادية نقدية. ومن ثم فأنت تتحدث في الواقع من الداخل " تتذكر ان استاذها بول دي مان شرح لطلبته ذات يوم مصطلح التفكيك قائلا : " يمكنكم فقط ان تقوموا بتفكيك ما تحبون ، لانكم ستقومون بالتفكيك من الداخل بألفة حقيقية « .

عام ١٩٧٥ اصبحت سبيفاك استاذه للادب المقارن ، بعد عام تمارس عملها أستاذة للعلوم الإنسانية في جامعة شيكاغو. ثم تلتحق بجامعة تكساس لتدريس اللغة الانكليزية والادب وهناك تؤسس مركز الدراسات الثقافية ..تنتقل في التسعينيات للعمل استاذه في العلوم الانسانية بجامعة كولومبيا .. عملت مستشارة للعديد من المجلات ابرزها مجلة " الاختلاف " ومجلة " علامات ، ومجلة المراة والثقافة والمجتمع .بالإضافة لكتاب دريدا، ترجمت رواية الخيال للمؤلفة البنغالية، ماهاسويتا ديفي ، واعمال الشاعر والسياسي " إيمي سيزير " . صدر لها العديد من الكتب ابرزها " عوالم أخرى: مقالات في السياسة الثقافية " و " هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ " و " مختارات من دراسة التابع " ، وكتاب " ناقد ما بعد الاستعمار " و " نساء هنديات " و " في عالم آخر " و " النقد ما بعد الاستعماري استعماري " فضلا عن كتاب مشترك مع الفيلسوفة الامريكية جوديث بتلر بعنوان " من قلل مكانة الدولة " ، وجميع هذه الاعمال جعلها تتبوأ مكانة كبيرة في دراسات ما بعد الاستعمار(ما بعد الكولونيالية) .

توصف سبيفاك بانها امرأة ترتدي اكثر من قبعة ، فهي أستاذ في جامعة كولومبيا تدرس لطلبتها الانكليزية والفرنسية والالمانية وتعتبر ابرز دعاة النظرية الادبية الحديثة ، وتقوم بتدريس كتب شديدة الصعوبة ، لكنها في الوقت نفسه ناشطة منخرطة في العمل النسوي ومفكرة ماركسية ، ومن جهة اخرى تقوم برحلات مكوكية الى الهند للعمل مع الطلاب الأميين في المدارس الريفية. اكدت انها تسعى لإيجاد طريقة للتدريس تحول فيها بديهيات الديمقراطية لعادات عقلية يمارسها الأطفال. تذهب الى القرى الهندية الفقيرة ثمانية او تسعة مرات في السنة حيث قالت انها ارادت ان تقدم تجربتها الحياتية لهؤلاء الاطفال والمعلمين معهم : " كنت اقول لهم ، كونوا صبورين . فقط القوا نظرة على حجم المشاكل التى واجهتنى على مدى السنوات " . تؤكد سبيفاك أن التعليم الحقيقي هو ممارسة أخلاقية. وهي ترى ان النهج الديمقراطي الحقيقي للتعامل مع من هم فى قاع المجتمع ، هو أن نتذكر أننا لا نرسل الاطفال إلى المدرسة لمحو أميتهم فقط. ولكن لكي نعلمهم كيف يمكن ان تعيش الحياة بصلابة: " في عالم أهل القاع، الحق الأول هو الحق في الرفض» .

من بين الدراسات المهمة التي نشرتها سبيفاك ، دراسة بعنوان " هل يستطيع التابع أن يتكلم ؟ " – ترجمه الى العربية خالد حافظي " وهو كما اعتقد الكتاب الوحيد الذي ترجم لغاياتري سبيفاك الى العربية ، والكتاب كان في الأصل بحث القته في مؤتمر " الماركسية وتفسير الثقافة " الذي عقد عام ١٩٨٣، ، في هذا البحث تصبح سبيفاك واحدة من أهم منظري دراسات مابعد الاستعمار " الكولونيالية " وقد جاء البحث بصيغة السؤال : هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ " ، يبدو السؤال كأنه نوع من الاستفهام الاستنكاري، فمن الطبيعي أن يتكلم التابع، فهو كائن بشري يستطيع الكلام، والكتابة، والتعبير، لكن الفكرة التي تريد سبيفاك ان تطرحها هو هل توفرت السياقات الثقافية المؤاتية للتابع لكي يتكلم؟ هل يتمكن من الحديث، وإسماع الآخرين صوته؟ فالشعوب المستعمرة سلب منها حق تمثيل نفسها، أي سلبت حق الكلام، والكلام هو الوسيلة الوحيدة لتأسيس معرفة متماسكة عن التابع، ووعيه، ووجوده. بعبارة أخرى فثمة فرق بين الفكرة القائلة إن التابع فرد مندمج في جماعة، والأخرى القائلة إنه كائن جرى تمثيله عبر الخطاب الاستعماري، ونجد سيبفاك تحاول ان تفحص الفروقات بين ما يسمى الحديث إلى، والحديث عن : " فأنت حينما تتحدث إلى الآخرين، في المجتمعات التي مرت بالتجربة الاستعمارية، تحاول في اللاوعي، أن تظهر اندماجك في السياق الثقافي للمخاطب، ولكنك حينما تتحدث إلى نفسك، تريد الانتماء إلى السياق الثقافي الأصلي المعبر عن هويتك، وبالسماح للتابع بأن يتحدث عن نفسه يمنح خطابه ميزة التضامن الثقافي بين جماعات متباينة، ونقض مبدأ أن التابع يتحدث للآخرين، بدل أن يتحدث الى نفسه، وفي النهاية سيتكرس دور التابع في تشكيل هويته الثقافية، وإعادة دمج مكونات المجتمع " . وترى سبيفاك بأن وعي التابع يتمثل لتأثيرات النخبة، فتلك التأثيرات هي التي تصوغه بسبب قوتها وهيمنتها، فيتعذر استعادة صوت التابع بصورته الحقيقية، بل لا حقيقة له، لأنه موجود فقط عبر تمثيل قوة النخبة، وثقافة الاستعمار : " باختصار فهومشوه، ومنبثق ضمن استراتيجيات خطاب أقوى يستحيل اختزاله «

وبعكس المألوف للسيدات فان سيبفاك وهي تقترب من عامها الثمانين ، لا تزال تنبض بالحياة ، تكتب وتسافر وتجري مقابلات ومداخلات مع الصحافة. وقبل اعوام ألقت محاضرة لطلبتها عن الزعيم الصيني ماو ، ومن اجل هذه المحاضرة تعلمت اللغة الصينية " : " لقد أردت أن أعطي شعوراً بان الانسان يستطيع التعلم حتى وهو متقدم في السن " ، كانت نشرح لطابتها افكار ماو عن الفلاحين من خلال ما كتبه في مقاله " حول التناقض " ، والتي تبدو فيها تاثيرات هيغل على ماو ، وستعود الى غرامشي حيث تبحث في كتاباته عن مفهوم المثقف . وايضا مفهوم " التابع " الذي ابتدعه المفكر الايطالي وجعله جاريا على الألسن في توصيف أبناء الطبقة العاملة وضحايا الرأسمالية، وقد كانت افكار غرامشي عن التابع هي الدافع التي جعلت سبيفاك تكتب بحثها الشهير " " هل يستطيع التابع أن يتكلم ؟ « .

خلال كتبها ومحاضراتها كانت سبيفاك تحارب على اكثر من جبهة ثقافية ، فهي تتصدى للثقافة الذكورية في الخطابات الفكرية في المجتمعات الغربية، ومن جهة اخرى تدرس بقايا التأثيرات الاستعمارية في العالم المستعمر سابقا، والجبهة الثالثة والمهمة هي تهميش المرأة اجتماعيا وثقافيا وسياسيا .

في محاضرة لها بعنوان " كيف يمكن للعالم أن يكون نسويا؟ " قالت : " تشعر النساء بأنهن ملزمات برعاية الآخرين ، ما يقود إلى استغلالهن في أماكن العمل كونهن لا يستطعن تصور أنفسهن خارج النموذج الذي يجعل الخدمة مهمة نسائية بالطبيعة " ، وتتناول سبيفاك حال المراة الهندوسية في الهند وكيف تتحول الى تابع من خلال طقوس حرق النساء لأنفسهن إثر موت أزواجهن، وهي تجد ان فعل المرأة هذا يرسخ فكرة تبعية المرأة للرجل بفعل هيمنة الثقافة الذكورية ثم هيمنة الأبوية والهيمنة الاستعمارية : "مادام صوت التابع – وهو هنا المرأة التي وجدت أن فكرة الحرق تعبير عن الوفاء– مخنوقا وسط دوائر متضافرة من الحجب والمنع، فهو إذا صوت صامت ومحكوم بالفشل « .

تسخر سبيفاك من النخب التي تعين نفسها " قادة أخلاقيين للمجتمع المدني " وتجد ان هذه النخب غالبا ما لا تساعد الآخر إلا بفوقية ، وترى سبيفاك أن : " على الديمقراطية أن ترى الناس متساوين، لا متشابهين. وإذا كان القانون الذي يحكم المجتمع لم يتمرن على ما أطلق عليه ميشيل فوكو (ممارسة الحرية) ، فالقانون إذا موجود فقط كي ينفذ قسرا، والذين يتم إجبارهم عليه سيجدون مع مرور الوقت ثغرات للالتفاف حوله « .

من رموز المرأة

غياتري جاكرافورتي سبيفاك

ترجمة : د. كاظم العلي

مع جاك دريدا

ولدت غياتري جاكرافورتي سبيفاك في ٢٤ فبراير شباط ١٩٤٢ و هي منظرة و ناقدة أدبية هندية تصف نفسها على أنها " تفكيكية نسائية ماركسية عملية". و تعرف سبيفاك على أفضل وجه بمقالتها "هل يستطيع الهامشي أن يتكلم Can the Subaltern Speak ? « التي تعتبر النص التأسيسي للدراسات ما بعد الاستعمارية و لترجمتها كتاب جاك دريدا "في النحوية Of Grammatology « . و تقوم سبيفاك حاليا بالتدريس في جامعة كولومبيا حيث تم تثبيتها أستاذة في مارس آذار.

ولربما تعرف سبيفاك على نحو أفضل أيضا باستخدامها الواضح للنظريات السياسية و الثقافية المعاصرة لتحدي الإرث الاستعماري المتمثل الطريقة التي يتعاطى بها القراء مع الأدب و الثقافة. و غالبا ما تركز في النصوص الثقافية للذين تهمشهم الثقافة الغربية المهيمنة كالمهاجرين الجدد و الطبقة العاملة و النساء .

إن سبيفاك باحثة منتجة و تسافر كثيراً في أرجاء العالم لإلقاء المحاضرات، وهي أيضا أستاذ زائر بمركز دراسات العلوم الاجتماعية بكالكتا.

حياتها:

ولدت غياتري جاكرافورتي سبيفاك بمدينة كالكتا في ٢٤ فبراير شباط ١٩٤٢ . و بعد إكمال دراستها المدرسية بمدرسة (الإعدادية للبنات حازت على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف في اللغة الإنكليزية في العام ١٩٥٩ من كلية (Presidency) بكولكاتا Kolkata)) وهي كلية تابعة لجامعة كالكتا (University of Calcutta). و أكملت بعد ذلك دراستها للماجستير في اللغة الإنكليزية في جامعة كورنيل ، و تابعت دراسة الدكتوراه مع قيامها بالتدريس في جامعة آيوا. وكانت أطروحتها عن الشاعر دبليو بي ييتس ، التي أشرف عليها بول دو مان ، بعنوان " نفسي التي يجب أن أعيد خلقها: حياة و شعر دبليو بي ييتس. Yeats « . و حين كانت في جامعة كورنيل ، كانت أول أمراة تنتخب عضوا في "جمعية تيليوراید و تزوجت سبيفاك لفترة قصيرة من تالبوت سبيفاك في ستينيات القرن العشرين. وتمثل رواية تالبوت سبيفاك " العروس ارتدت الذهب التقليدي « سيرة ذاتية تتناول السنين الأولى لهذا الزواج.

أعمالها:

إن ترجمة سبيفاك لكتاب دريدا "في النحوية" ، الذي تضمن مقدمة للمترجمة وصفت منذ ذلك الحين على أنها "تؤسس لمعيار جديد للانعكاس الذاتي في المقدمات" ، جلبت الشهرة لها. قامت بعد ذلك بسلسلة من الدراسات التاريخية و النقود الأدبية للإمبريالية و الأنثوية / الجنسوية الدولية.و غالبا كانت ما تشير لنفسها على انها تفكيكية جنسوية ماركسية عملية. و كان انشغالها الأثنو – السياسي المهيمن هو ميل الخطابات و الممارسات المؤسساتية و الثقافية لاستثناء و تهميش التابع و خصوصا النساء المقصيات.و يشير ادوارد سعيد إلى انها " كانت رائدة الدراسة في النظرية الأدبية للنساء غير الغربيات و انها أنتجت واحدة من الدارسات المبكرة و الأكثر تماسكا المتوفرة لنا عن ذلك الدور».

ويستكشف كتابها الأخير " نقد العقل ما بعد الاستعماري A Critique of Postcolonial Reason « الصادر في ١٩٩٩ كيف أن الأعمال الأساسية للماورائيات الأوربية (مثل أعمال كانت و هيغل) لا تميل إلى استثناء المهمشين من مناقشاتها فقط بل تمنع بفاعلية غير الأوربيين من احتلال مواقع بوصفهم مخلوقات إنسانية كاملة.

لقد شكلت سبيفاك المصطلح " الجوهرية الإستراتيجية « الذي يشير إلى نوع من التضامن المؤقت لأجل العمل الاجتماعي. فعلى سبيل المثال، إن وجهة النظر بأن للمجاميع النسوية العديد من البرامج المختلفة تجعل من الصعب على الناشطات العمل في القضايا العامة. إن "الجوهرية الإستراتيجية" تتعلق بالحاجة للقبول المؤقت بموقع "جوهري" للتمكن من القدرة على التصرف.

درست سبيفاك في جامعات عدة قبل القدوم الى كولومبيا في ١٩٩١. و كانت زميلاً ضمن زمالات غغنهايم و حازت على عدة تشريفات أكاديمية بما فيها درجات دكتوراه فخرية من كلية أوبرلين، و كانت ضمن اللجنة التحريرية لمجلات اكاديمية مثل مجلة باوندري. و في ٩ مارس آذار ٢٠٠٧ عين رئيس جامعة كولومبيا لي بولنغر سبيفاك بمرتبة (أستاذ) و هي أعلى مرتبة علمية جامعية . و كتب في رسالة لكليتها يقول:

إن عملها البحثي ذا السمعة العالمية ، المؤسس على النظرية التفكيكية الأدبية ، لا يمتد بشكل واسع من انتقاد الخطاب ما بعد الاستعماري إلى الجنسوية و الماركسية و العولمة فحسب ، بل إن بحثها المستمر عن استبصارات جديدة و فهم جديد قد تجاوز الحدود التقليدية للمنهج في الوقت الذي تحتفظ فيه بالوهج للمعرفة الجديدة الذي هو علامة العقلية العظيمة.

و بدفاعها عن أصوات و نصوص مجاميع الأقليات فإن سبيفاك تحدت بعض الأفكار المهيمنة للفترة الراهنة. و بعض هذه الأفكار تتضمن ، على سبيل المثال، مفهوم أن العالم الغربي أكثر تحضرا و ديمقراطية و تطورا من العالم غير الغربي ، أو أن الفترة مابعد الاستعمارية الحالية أكثر حداثة و تقدما من الفترة التاريخية المبكرة للاستعمارية الأوربية في القرن التاسع عشر.

وصف البعض كتابات سبيفاك بأنها مبهمة ، و أُوحي أيضا ان عملها يقدم الأسلوب على الجوهر. و ترد في دفاعها على ذلك بالقول بأن هذا النوع من النقد يكشف عن عدم رغبة بالتعاطي الواقعي مع نصوصها. و تلحظ جودث بتلر أن لغة سبيفاك المغلقة افتراضيا تلقى صداها لدى عشرات الآلاف من الناشطين و الباحثين و أنها غيرت بعمق تفكيرهم.و مع ذلك فإن الناقد الأدبي الماركسي تيري إيغلتون يقول " و هكذا فإن هناك القليل من النقاد المهمين في عصرنا من أمثال سبيفاك...و من المرجح أنها قامت الكثير من الأعمال الطويلة الأمد من الخير السياسي، في ريادتها للدراسات الجنسوية و مابعد الاستعمارية في الأكاديمية العالمية أكثر من جميع زملائها النظريين تقريبا»

و تناقش سبيفاك في الخطابات ألملقاة و المنشورة منذ ٢٠٠٢ قضية الإرهاب مبينة بوضوح أن نيتها هي وضع نهاية للتفجيرات الانتحارية و استكشفت و حاولت " تخيل نوعية الرسائل التي قد تحتويها مثل هذه الأفعال. و ضمت تأملاتها هذه أوصافاً مثل " ان عمليات التفجير الانتحارية أعمال مطبوعة على الجسد حين لا تنجح وسائل أخرى».

الأعمال الإنسانية:

أسست سبيفاك المشروع التربوي التذكاري و هو منظمة غير ربحية في ١٩٩٧ لتقديم التعليم الأساس المتميز للأطفال في بعض المناطق الأشد فقرا في العالم مستمرة في العمل الذي قامت به منذ ١٩٨٦. و يدير المشروع حاليا مدارساً في غرب البنغال و الهند. و إنشاء المدارس و تقديم التدريب المستمر للمعلمين المحليين الذين يديرون تلك المدارس بمساعدة المشرفين المحليين فإن المشروع يسعى لتزويد الأطفال في هذه المناطق بالموارد للانخراط في النظام التعليمي العام للمدارس الثانوية و ما بعدها. إن المشروع ملتزم باستخدام المناهج الحكومية الحالية و الكتب المقررة لتدريب المعلمين إيمانا منه انه باستخدام هذه المواد انهم يستطيعون بشكل أفضل تمكين الطلاب للدخول إلى النظام التربوي الوطني على أسس متساوية مع الآخرين. و قالت سبيفاك عن المشروع " طالما أن الهند تفخر باستمرار بكونها أكبر ديمقراطية في العالم، و أن هذا جزء كبير من القاعدة الانتخابية، فإن ما أحاول القيام به هو تنمية طقوس العادات الديموقراطي .

عن موقع نور

سبيفاك والقراءة التفكيكية للمهمش ثقافياً

محمد كريم الساعدي

لقد ظهر عدد من النقاد الذين أسهموا في حركة النقد ما بعد الكولونيالي، مستفيدين من دراسات (سعيد) وما أثاره حول مصطلحي (الأنا) و (الآخر) أو (المركز والهامش) ، ومن هؤلاء الفاعلين في حركة ما بعد الكولونيالية الناقدة (سبيفاك) التي ركزت في دراساتها على عدد من المفاهيم ومنها (المهمش ، والتابع ، والآخر) إذ أسهمت بشكل فعال في تأسيس دراسات (التابع) ، حيث انخرطت في جدل معمق حول تبعية الهويات الثقافية ، ومفهوم الهيمنة الاستعمارية والطبقية والجنسية ، ولعل بحثها (هل يستطيع التابع أن يتكلم ؟) إذ ارادت الوصول الى اجابات محددة الى ان الشعوب التي خضعت للإستعمار سلب منها حق تمثيل نفسها ، وبالتالي سلبت منها حق التعبير عن ذاتها ، وجاء التعبير عن الذات الأصلانية بواسطة من يمثلها وليست بواسطتها ، فتبعيتها الثقافية تقع تحت تأثير الخطاب المسيطر (الكولونيالي) الذي تغلغل في كل مفاصلها الثقافية ، ملغياً ملامح الآخر الثقافية ، وجاعل منه تابع له ، وحتى إذا تكلم فيكون الصوت ممثلاً بخطاب غير حقيقي عن ذاته ، بل بخطاب صيغة له على وفق متطلبات العمل الكولونيالي ، التي ترى فيه (سبيفاك) أن وعي التابع تمثله النخبة وتأثيراتها التي توصف الثقافة العامة. فتلك التأثيرات تم توجيهها وبثها في الثقافة التابعة من قبل الاستعمار، الذي سيطر على ذلك الوعي الأصلاني وصورته الحقيقية ؛ لأنه مستعاد عبر تمثيل قوة النخبة وثقافة الاستعمار . وهذه التأثيرات النخبوية هي من طبق الخطاب الكولونيالي ، وخاصة في عهد الاستعمار البريطاني الذي صاغ ثقافة جديدة في الهند كمثال أول وحاول تطبيقه على الشعوب التي وقعت تحت الاستعمار البريطاني ، إذ تكمن ملامح هذا المشروع في جعل النخب الثقافية الهندية ، تتمثل بهويتها الهندية ولكنها بثقافة كولونيالية وتصبح ناطقة باسم الخطاب الثقافي الكولونيالي ، وليس بالخطاب الثقافي الهندي الاصلاني. مما يجعل الخطاب الكولونيالي هو الخطاب الرسمي الممثل للثقافة الهندية وبذلك تم إعادة كتابة تاريخ الهند على وفق نظرية النخب الثقافية.

استخدمت (سبيفاك) في مفهوم (التابع) منهج(دريدا) التفكيكي كإطار تحليلي للخطاب الكولونيالي ، حيث تأثرت به وبمصطلحاته وخصوصاً (الاختلاف) ، يتضح ذلك التأثير من خلال ترجمتها وتقديمها لـ (علم انساق الكتابة)لـ(دريدا) ، التي عدت من أفضل المقدمات التي يقرأ بها النص تفكيكاً ، وتناولت من خلالها مفهوم (الاختلاف) حيث توضح ذلك في النص الآتي: في أثناء قيامنا بفك شفرة نص ما على نحو تقليدي ، ولو صادفتنا مفردة يبدو أنها تضمر تناقضاً غير قابل للحل فإننا نمسك بهذه المفردة. ولو بدأ أن مجازاً يطمس ما ينطوي عليه من تضمينات فسوف نمسك بهذا المجاز. وسوف نقتفي أثر مغامراته عبر النص ، فنرى النص في طريقه إلى أن ينحل من حيث هو بنية إخفاء كاشفاً انتهاكه لنفسه وكاشفاً عدم قدرته على الحسم.

ان غاية النظرة التفكيكية عند (دريدا) هي مهاجمة التمركز الغربي حول الذات ، الذي استفادت منه (سبيفاك) في نقدها ما بعد الكولونيالي ونقدها للثنائية التي تقابل بين المركز والهامش ، لذلك عملت على اقتفاء أثر مفاهيم (دريدا) ونقده (للوغوس) الغربي أو ما يطلق عليه (العقل الميتافيزيقي) ، الذي يرى فيه (دريدا) أن هذا العقل ليس سوى نظام أنظمة معرفية واحد تجدده منظومة معينة من القيم قدست إنتاجه وأضفت عليه صبغة العقلانية التي لم تتخلص من قاعدة الثنائيات التي أخذت أشكالاً تقابلية : الخير / الشر ، الرجل / المرأة ، الدال / المدلول ، الكلام / الكتابة... الخ. هذا ويقوم العقل الفلسفي النقدي التفكيكي على قدر كبير من التشكك في اللغة بصفتها أبعد ما تكون عن التعبير الموضوعي.

لقد ركز (دريدا) في تفكيكه على (الكتابة) بدل (الكلام) ، ومصوراً بأن عملية التركيز على (الكتابة) قد غيرت من مفهوم التمركز حول اللغة التي ترتبط بالفكر الغربي، وما أنتجه من تصورات بالأفضلية والتعالي ضد الآخر ، دون مناقشة الفجوات في داخل (الأنا). أنَّ مفهوم الكتابة عند (دريدا) صيغ على وفق ثلاثة من المصطلحات التي تعمل في المفهوم الجديد للكتابة وهي (الاختلاف والأثر والكتابة الأصلية (الأولى) .

فالمصطلح الأول (الاختلاف) ، الذي يشير إلى فعلين : الاول يقع في صيغة (أن يختلف differ)، اي لا يكون متشابها. اما الثاني فيأتي في صيغة (أن يؤجل defer)والأول مكاني والثاني زماني. ويرى (دريدا) أن كل علامة تؤدي هذه الوظيفة المزدوجة:(الاختلاف والتأجيل) ، ولهذا السبب تكون بنية العلامة مشترطة من قبل الاختلاف والتأجيل ، وليس من خلال الدال والمدلول ، وإن العلامة التي تؤدي وظيفتها المزدوجة بين الاختلاف والتأجيل ، هي أثر وليست تمثيل مرئي ومحسوس للكتابة ، فهي تنطلق من كونها أثراً ثقافياً أو نفسياً أو روحياً أكثر من كونها طبيعة مادية أو بيولوجية، وبحسب مفهومي الاختلاف والتأجيل في العلامة وما ينتج عنها من أثر ، أصبح للكتابة مفهوم آخر لدى (دريدا) تعني النقش عموماً ، وليس فقط الكتابة الحرفية ، إذ يشمل هذا المفهوم كل النتاجات الأدبية والفنية ومنها التصوير السينمائي ، والرقص ، والبالية ، والموسيقى ، والنحت ، والعرض المسرحي ، وجميعها كتابة.

إن فكر (دريدا) التفكيكي أصبح يبحث عن قلب المعادلة التي تؤكد فكرة (الحضور) الذي تبناه العقل الغربي ، والبحث عن الغياب وما يخفيه من خلال النظر بفعلي الاختلاف والتأجيل في وظيفة العلامة ، فالقول بالنقيض وتحويل التركيز اتجاه الغياب هو ما تمركز عليه التفكيك من أجل الوصول إلى غايات وراء ما هو حاضر. فالغياب يعني أن في الذات جانباً خفياً وسرياً لا يحضر في الوعي ، ولا يمكن أن يتمثله ويعكسه ، فيبقى دائماً غائباً.

لقد استفادت (سبيفاك) في عملها التفكيكي من مفهوم الغياب في إتباع ما يخفيه الخطاب الكولونيالي ، وكذلك البحث عن صوت التابع في هذا الخطاب ، فالصوت المستبعد صوت الآخر الذي مثل بخطاب المؤسسة الغربية ، والذي ظهر في خطابها من خلال ما هو خفي فيه ، أي عن طريقة الإشارات الكامنة وراء المعنى والدالة على صناعة الآخر. وهنا عملت (سبيفاك) في توصيف صناعة الآخر من خلال إشارتها إلى العملية التي يخلق بواسطتها الخطاب الامبريالي (آخرين) بالنسبة لذاته. وبينما يقابل (الآخر other) بؤرة الرغبة أو القوة التي يتم إنتاج الذات من خلال العلاقة بها. فان الآخر (other) هو الذات المستبعدة أو التي يتم التسيد عليها ، التي يخلقها خطاب القوة. وتصف صناعة الآخر السُبل المتعددة التي يخلق بها الخطاب الكولونيالي تابعيه.

عن الحوار المتمدن

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

صارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

هل يستطيع التابع أن يتكلم؟

د. عبدالله ابراهيم

عرفت «دراسات التابع» منذ ربع قرن، واستأثرت باهتمام كبير في أوساط المؤرخين، والمفكرين، والنقاد، وتشكل اليوم الموضوع المركزي لـ «دراسات ما بعد الاستعمار» في إفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، وتمثل لب «الدراسات الثقافية» التي تخطت المفاهيم التقليدية للنقد الأدبي، وفتحت الأبواب بين الأدب، والفكر. والتاريخ ، والانثربولوجيا، والسياسة، باعتمادها على فكرة «التمثيل أي الكيفية التي تتجلى فيها الأحداث في الخطابات بكل أشكالها، فمعلوم بأنه لا توجد أحداث مجردة، إنما الأحداث الواقعية «التاريخية» منها أو المتخيلة «الأدبية» تظهر في سياق خطاب، تعمل استراتيجياته على التحكم في نوع الحدث، وتظهره طبقا لسلسلة متكاملة من التحيزات الثقافية الخاضعة لذلك السياق.

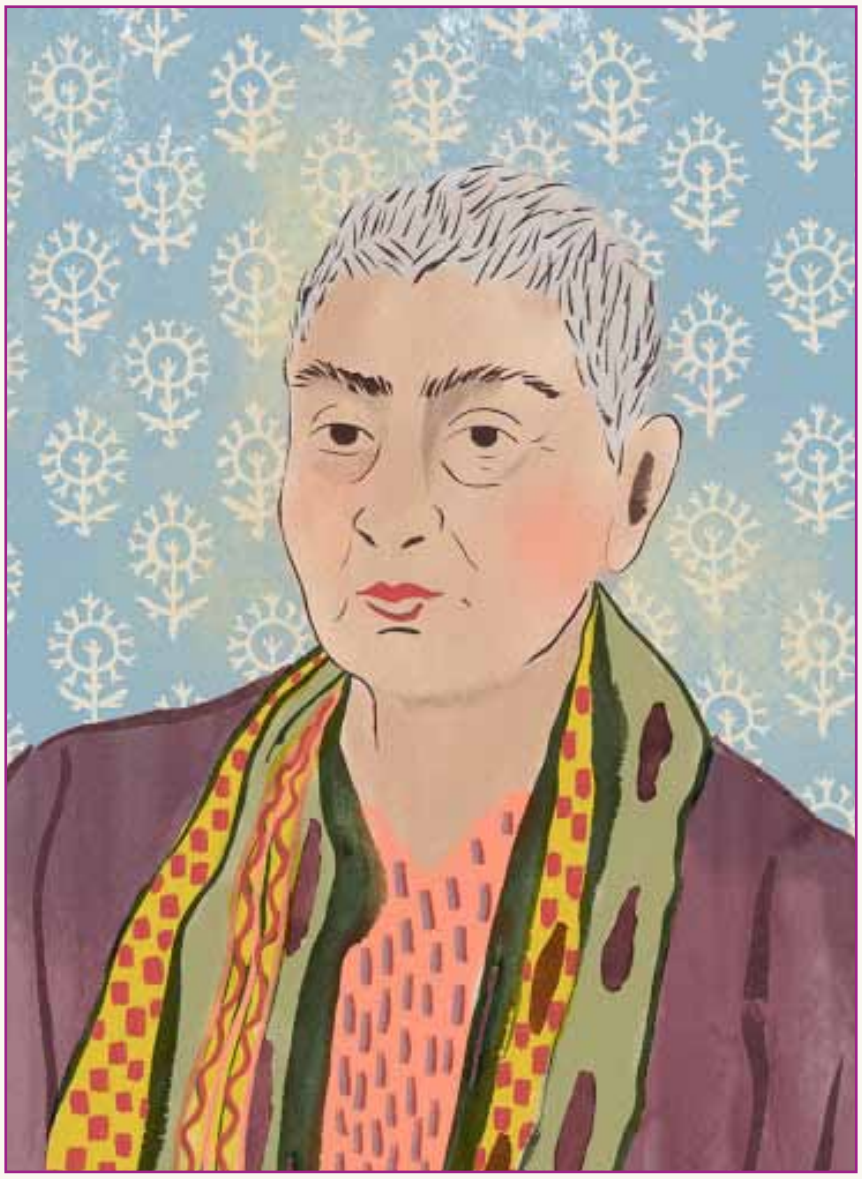

سأخصص هذه المقالة لمناقشة بحث شهير جدا، يعد من البحوث المعتمدة في «دراسات التابع» قدمته «غاياتري سبيفاك» في مؤتمر «الماركسية وتفسير الثقافة» الذي عقد عام 1983، ثم نشر في عام 1988 وعنوانه «هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ «فخلال عقدين نوقش هذا البحث، وحلل، في عشرات من الدراسات، والمناظرات، والمؤتمرات، فارتبطت دراسات التابع به، حيثما أثير جدل الثقافي حول الهويات الثقافية، ومفهوم التبعية الخارجية «الاستعمارية» والتبعيات الداخلية «الطبقية، والجنسوية» وتعد «سبيفاك» أهم منظري دراسات مابعد الاستعمار، وحينما طلب إليها تعريف نفسها، اكتفت بالقول إنها مفكرة أخلاقية عابرة للثقافات، وتنتسب إلى التفكيك التطبيقي، وهذا يحيل على أمرين: عدم انحباس الثقافة في مكان محدد، والانتماء إلى منهجية التفكيك التي أسسها دريدا، وبالفعل فقد لمع نجمها في العالم إثر ترجمتها الانجليزية لكتاب دريدا «في علم الكتابة Of grammatology» الذي صدر في 1967، ونشرت ترجمته جامعة «جون هوبكنز» في 1976، بمقدمة وافية كتبتها سبيفاك، وإلى تلك المقدمة يعود الفضل ليس لشهرتها فقط، إنما دخول التفكيك في صلب الثقافة الأنجلو –سكسونية، ومنذ ذلك الوقت اعتمدت هي نفسها على استراتيجيات التفكيك في دراساتها النظرية وتحليلاتها النصية.

ولدت «سبيفاك» في كلكتا في البنغال الغربي في 1942 لعائلة من الطبقة الوسطى، وعلى هذا فهي تنتمي الى الجيل الأول من مثقفي الهند بعد الاستقلال، درست الإنجليزية في جامعة كلكوتا، ورحلت الى الولايات المتحدة الأميركية في عام 1960 لدراسة الأدب المقارن، فنالت الماجستير، وأعدت أطروحتها للدكتوراه حول الشاعر «ييتس» وصدرت في كتاب بعنوان «حياتي التي يجب أن أعيد خلقها: حياة وشعر و.ب ييتس «في عام 1974 قدمها الناقد المعروف «بول دي مان» الذي أصبح أحد أهم أعلام جماعة «ييل» للدراسات التفكيكية . عملت معه في وقت لم يكن عرف شيئاً عن دريدا، وسبيفاك نفسها لم تعلم شيئا عن المؤتمر الذي عقد في جامعة «جون هوبكنز» عام 1966 وتشققت فيه البنيوية، وانبثقت مدارس مابعد الحداثة، ومنها التفكيك الذي ارتبط بدريدا، وتواصلت أعمالها التي اتخذت شهرة عالمية منها «عوالم أخرى: مقالات في السياسة الثقافية عام 1987 و«هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ « موضوع حديثنا، و«مختارات من دراسة التابع «بالمشاركة مع» رانا جيت جحا» في عام 1988، ثم «ناقد ما بعد الاستعمار: لقاءات، استراتيجيات، حوارات «في عام 1990 و«نقد عقل مابعد الاستعمار «في عام 1999م فضلاً عن عشرات المقالات، والبحوث، والمؤتمرات، واللقاءات الأخرى، وجميع هذه الأعمال جعلتها تتبوأ مكانة كبيرة في دراسات ما بعد الاستعمار، ودراسات التابع، فهي تدرج ضمن النخبة المؤسسة لهؤلاء النقاد والباحثين.

جاء البحث بصيغة السؤال «هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ «ولأول وهلة، يبدو وكأنه نوع من الاستفهام الاستنكاري، فمن الطبيعي أن يتكلم التابع، فهو كائن بشري يستطيع الكلام، والكتابة، والتعبير، لكن مؤدى الفكرة التي تريد سبيفاك طرحها هو هل توفرت السياقات الثقافية المؤاتية للتابع لكي يتكلم؟ هل يتمكن من الحديث، وإسماع الآخرين صوته؟ فالشعوب المستعمرة سلب منها حق تمثيل نفسها، أي سلبت حق الكلام، والكلام هو الوسيلة الوحيدة لتأسيس معرفة متماسكة عن التابع، ووعيه، ووجوده. بعبارة أخرى فثمة فرق بين الفكرة القائلة إن التابع فرد مندمج في جماعة، والأخرى القائلة إنه كائن جرى تمثيله عبر الخطاب الاستعماري، ف«سبيفاك» تريد أن تفحص بدقة الفرق بين «الحديث إلى» و«الحديث عن» فأنت حينما تتحدث إلى الآخرين، في المجتمعات التي مرت بالتجربة الاستعمارية، تحاول في اللاوعي، أن تظهر اندماجك في السياق الثقافي للمخاطب، ولكنك حينما تتحدث إلى نفسك، تريد الانتماء إلى السياق الثقافي الأصلي المعبر عن هويتك، وبالسماح للتابع بأن يتحدث عن نفسه يمنح خطابه ميزة التضامن الثقافي بين جماعات متباينة، ونقض مبدأ أن التابع يتحدث للآخرين، بدل أن يتحدث الى نفسه، وفي النهاية سيتكرس دور التابع في تشكيل هويته الثقافية، وإعادة دمج مكونات المجتمع. ترى سبيفاك بأن وعي التابع يتمثل لتأثيرات النخبة، فتلك التأثيرات النفسية تصوغه بسبب قوتها وهيمنتها، فيتعذر استعادته بصورته الحقيقية، بل لا حقيقة له، لأنه مستعاد عبرتمثيل قوة النخبة، وثقافة الاستعمار، لهذا فهومنزلق دائما عما ينبغي أن يدل عليه، إلى ذلك فهو يتجلى مطموسا وممحوا في لحظة تجليه؛ باختصار فهومشوه، ومنبثق ضمن استراتيجيات خطاب أقوى يستحيل اختزاله.

وتطرح سبيفاك إمكانية فك شفرات كلام التابع من خلال فكرة التمثيل الاستعماري له، لكنها تذهب إلى البعد الخاص من الموضوع من خلال كشف طقوس حرق النساء لأنفسهن أثر موت رجالهن، وهو طقس معروف في الهند، يسمى «Sati» فثمة تضافر بين الهيمنات الكبرى للنصوص الدينية الهندوسية المشجعة على حرق المرأة، وبين فكرة تبعية المرأة للرجل بفعل هيمنة الثقافة الذكورية، ثم هيمنة الأبوية، والهيمنة الاستعمارية، ومادام صوت التابع، وهو هنا المرأة التي وجدت أن فكرة الحرق تعبير عن الوفاء، مخنوقا وسط دوائر متضافرة من الحجب والمنع، فهو إذن صوت صامت، ومحكوم بالفشل، لأن قوة المتبوعين، سواء كانوا تقاليد دينية، أو ثقافة أبوية، أو ثقافة استعمارية تحول دون انبثاق صوت التابع، ولكنها تقترح حلا لا يقف أمام هذه النهاية يتمثل باستعادة وعي التابع عبر صوت المثقف المنبثق من صلب الجماعة، لكي ينوب عنها في التعبير، لكن ذلك بحد ذاته يعيدنا إلى فكرة التمثيل، بما فيه التي طرحها ماركس عجز عن الشرقيين على تمثيل أنفسهم.

وسؤال سبيفاك يتخطى المستوى المباشر الى آخر فلسفي متعال، فهي تتحدث أيضا عن إمكانية حقيقة لتأثير كلام التابع وصدقه، إذ ليس كل كلام يحمل الحقيقة، فحديث التابع محاط بسياقات ضاغطة من ثقافات أخرى تجعله غير قادر على التعبير عن الحقيقة، فقد جرى التواطؤ، بسبب السياسات الاستعمارية، على أن التابع غير قادر على تمثيل نفسه،ولا بد أن تمثله السلطة الاستعمارية، ولهذا تتناقض الإمكانية أمام التابع ليقول شيئا حقيقياً، وهذا ينقل سؤال سبيفاك من المستوى الواقعي الى المستوى الافتراضي المتعالي بالمعنى الفلسفي.